أبوّة الله في العهد القديم

الأب أيوب شهوان

مقدّمة

اختبر شعب إسرائيل اللهَ كأب، انطلاقًا من المعرفة المباشرة لعمله الخلاصيّ الخاصّ، واعترف بأبوّته الإلهيّة انطلاقًا من الاندهاش أمام الخلقِ وتجدّدِ الحياة، واستطاع أن يرى في الله أبًا أيضًا بالمماثلة مع بعض الأشخاص الذين كانوا يتولّون وظيفة عامّة، خاصّة الوظائف الدينيّة، وكانوا يُعتَبَرون آباءً، كالكهنة (رج تك ١٧: ١٠؛ ١٨: ١٩؛ ٤٥: ٨)، أو الأنبياء (رج ٢ مل ٢: ١٢)، وغيرهم.

في الواقع، نضجت في إسرائيل صورةٌ مميَّزة عن أبوّة الله انطلاقًا من تدخلات الله الخلاصيّة لصالح شعبه. فعلى إثر تخليص الله إسرائيل من العبوديّة المصريّة، دعاه للدخول في علاقةِ عهدٍ معه، معتبرًا إيّاه ابنَه البكر. يبيّن اللهُ هكذا بأنّه أبٌ لشعبه بطريقة فريدة، كما يتّضح ذلك من الكلمات التي وجّهها إلى موسى: "قُلْ لفرعون: يقول الربّ: إسرائيل هو ابني البكر" (خر ٤: ٢٢). عند ساعة فقدان الأمل، يستطيع هذا الشعبُ–الابنُ أن يدعوَ اللهَ بذات العنوان الامتيازيّ، أي الآب السماويّ، كي يجدّد أيضًا معجزة الخروج: "إرحم، يا ربّ، الشعبَ المدعوَّ باسمك، إسرائيل، الذي عاملتَه كبكْرٍ" (سي ٣٦: ١١). يُبْرِزُ هذا الأمرَ ما يقوله سفر تثنية الاشتراع: "أنتم أبناءٌ للربّ إلهكم... أنت في الواقع شعبٌ مكرّسٌ للربّ إلهك، والربُّ اختارك لكي تكون شعبَه الذي ينعم بالامتياز بين كلّ الشعوب التي على الأرض" (تث ١٤: ١ي).

لم يحفظ إسرائيلُ شريعةَ الربّ، بل عمل على نقيض وضعه كابنٍ، فجلب على نفسه توبيخات الآب السماويّ: "الصخر الذي ولدك تركْتَه، والإله الذي أنشأك نسيتَه" (تث ٣٢: ١٨). هذا الوضع البنويّ يشمل كلّ شعب إسرائيل، ولكنه يُطَبَّق بطريقة فريدة على نسل داود وخليفته استنادًا إلى نبوءة ناتان الشهيرة التي فيها يقول الله: "أنا أكون له أبًا وهو يكون لي ابنًا" (٢ صم ٧: ١٤؛ ١ أخ ١٧: ١٣). على أساس هذا القول، أكّد التقليدُ المسيحانيُّ بنوّةَ المسيحِ الإلهيّة: "أنت ابني، أنا اليوم ولدتُك" (مز ٢: ٧؛ رج ١١٠: ٣).

تتميّز أبوّة الله لإسرائيل بمحبّةٍ شديدة، متضامنة وثابتة. فبالرغم من عدم أمانة الشعب، وما يليها من تهديدات بالعقاب، لا يتخلّى الله عن محبّته. ويعبّر عن ذلك بتعابير حنان عميق، حتّى عندما كان مكرَهًا على أن يتذمّر من عدم تجاوب أبنائه: "علّمت أفرائيم أن يمشي مُمسِكًا إياه بيده، ولكنهم لم يعلموا أنني أنا أبرأتهم. إني أجتذبهم بحبال البشر، بربط الحبّ..." (هو ١١: ٣ي و٨؛ رج إر ٣١: ٢٠).

حتّى التوبيخ أصبح تعبيرًا عن المحبّة والرضى، كما يشرح سفر الأمثال: "يا بنيّ، لا ترذل تأديب الربّ، ولا تسأم توبيخه، فإنّ الذي يحبّه الربّ يؤدبّه، ويرتضي به كابٍ بابنه" (أم ٣: ١١-١٢).

لنستعرض، ولو بالإيجاز، أهمّ ما علّمه العهد القديم، ثم الأدب اليهوديّ، حول أبوّة الله.

١ – الله الأب في نصوص العهد القديم

نصوص العهد القديم التي تعتبر الله أبًا هي جوهريًّا نصوص متأخّرة، تحتوي على لقب "أب" لله، مثلاً: أش ٦٣: ١٦؛ ٦٤: ٧؛ ملا ١: ٦؛ ٢: ١٠؛ أم ٣: ١٢. ونجده لاحقًا في النصوص القانونيّة الثانية، مثلاً: طو ١٣: ٤؛ سي ٢٣: ١؛ ٢٣: ٤؛ ٥١: ١٠؛ حك ١٤: ٣. هناك أيضًا شهادات أخرى يصعب تحديد تاريخها (إر ٣: ٤؛ ٣: ١٩؛ ٣١: ٩؛ مز ٦٨: ٦). عندما يُدعَى الله "أبًا"، فإنّ كلّ شعب إسرائيل يُعتَبَر بشكل عامّ أنه "ابنٌ" (رج تث ٣٢: ٦). ولكن عندما يكون فردٌ واحدٌ الابنَ، فالمقصود عندها هو الملك (٢ صم ٧: ١٤؛ مز ٨٩: ٢٧؛ رج مز ٢: ٧). لكن يجب ألاّ ننسى أن الملك هو شخص جامع، أي أنّه يمثّل الشعب.

٢ – أبوّة الله وأبوّة البشر

نجد اختبار أبوّة الله في الخلق في أولى صفحات العهد القديم:

"فالله هو أب لأنّه فطرنا وأبدعنا" (تث ٣٢: ٧).

"والآن أنت، يا ربّ أبونا، نحن الطين وأنت جابلنا، ونحن جميعنا عمل يديك" (أش ٦٤: ٨).

غير أنّ هذه الأبوة ليست كأبوّة البشر لأبنائهم، إذ تسمو عليها لأنّها فعل حبّ مجانيّ، ودعوة مستمرّة من العدم إلى الوجود، ومن الخطيئة إلى النعمة، ومن الموت إلى الحياة، لذلك هي لا تقف عند حدود الضعف البشريّ، بل تتجلّى أكثر عبر هذا الضعف. لذلك نرى جواب الربّ على لسان أشعيا النبي: "قالت صهيون: قد خذلني الربّ ونسيني السيد. أتنسى المرأة رضيعها، فلا ترحم ابن بطنها؟ ولكن، ولو أن هؤلاء نسونني لا أنساك أنا؛ هاءنذا على كفّي رسمتك" (أش ٤٩: ١٤-١٦). هو لا ينسى لأنّه يحبّ ويغفر، ومعرفته لنا هي حبّه الذي يدعونا إلى الحياة: "قبل أن أصوّرك في البطن عرفتك، وقبل أن تخرج من الرحم قدّستك" (إر ١:٥)؛ "أنت الذي أخرجتني من البطن، وأنت متّكلي من ثديي أمّي، إليك أُلقيت من الحشا، من بطن أمّي أنت إلهي" (مز ٢٢: ١٠-١١).

٣ – أبوّة الله لإسرائيل

أطلق إسرائيل على الله تسمية "أب" من حيث هو خالق (أش ٦٤: ٧؛ ملا ٢: ١٠؛ رج تك ٢: ٧؛ ١: ١-٣)، وعن طريق اختبار حيّ عاشه، وليس عن طريق البرهان والتنظير. فهو الأب الذي أنجب إسرائيل (تث ٣٢:٦)؛ هو في آنٍ معًا **أبٌ لشعبه**، وبالمعنى المجازيّ للكلمة، زوجٌ له (هوشع، إرميا). لا يرضى إلهُ إسرائيلَ أن يُدعَى أبًا، بنفس الطريقة التي بها يدعو أتباعُ "بعل" إلـــهَهم (إر ٢: ٢٧)، الأمر الذي يتطلّب تنقية فكرة الأبوّة الإلهيّة من أيّ أثرٍ غريب.

لقد كشف اللهُ عن ذاته أبًا لإسرائيل أثناء إخراجه من العبوديّة في الأرض الغريبة، حارسًا إياه ومقدّمًا له القوت الجسديّ والغذاء الروحيّ. مقابل هذه العناية المطلقة، يطلب من شعبه الخضوع له والثقة به (خر ٤: ٢٢؛ عد ١١: ١٢؛ تث ١٤: ١؛ أش ١: ٢-٤؛ ٣٠: ١ و٩؛ إر ٣: ١٤). على هذه المعطيات وعلى أهمّيّة حنان الله العظيم، يركّز خاصّة النبيّان هوشع وإرميا (هو ١١: ٣-٤ و٨-٩؛ إر ٣: ١٩؛ ٣١: ٢٠).

ومنذ السبي، وبالإضافة إلى فكرة أبوّة الله القائمة على الاختيار (أش ٤٥: ١٠-١١؛ ٦٣: ١٦؛ ٦٤: ٧-٨؛ طو ١٣: ١٤؛ ملا ١: ٦؛ ٣: ١٧)، وعلى التبنّي (تث ٣٢: ١٠)، نجد في بعض المزامير (مز ٢٧: ١٠؛ ١٠٣: ١٣)، ولدى بعض الحكماء (أم ٣: ١٢؛ سي ٢٣: ١-٤؛ حك ٢: ١٣-١٨؛ ٥: ٥) فكرة أنّ **كلّ شخص صالح هو ابن الله**، بمعنى أنّه موضوع حمايته المتّسمة بالحنان. هذا ما يدلّ عليه، مثلاً، الاسمُ "أبيعازر" (يش ١٧: ٢)، التي تعني: "أبي هو عوني".

ومنذ عهد داود، أخذ بنو إسرائيل ينادون بـــ**أبوّة الربّ للملك** (٢ صم ٧: ١٤-١٥؛ مز ٢). نجد بهذا المعنى عبارة المزمور ٢: ٧: "أنت ابني". تمهّد النصوص الخاصّة بتبنّي الله للملك السبيل للوحيّ بالبنوّة الفريدة ليسوع، بقدر ما يرتسم على ملوك يهوذا وجه المشيح الحقيقيّ. وقبل مجيء المسيح يسوع بأقلّ من قرن، تكوّنت صورةُ الحكمة (أم ٨) الماثلة في هيئة شخص ابنة الله، التي تسبق الخلق كلّه، وتتضمّن في ذاتها الرجاء المعلّق على سلالة أسرة داود، ابتداءً من نبوءة ناتان.

٤ – أبوّة الله قبل سفر الحكمة

قبل سفر الحكمة، كانت فكرةُ الله "الأب"، أي فكرة صلاحه تجاه شخصٍ ما أو تجاه البشريّة ككلّ وعنايته بهم، شائعة إلى حدٍّ كبير. فعلى ١١٨٠ مرّة، التي تَرِدُ فيها كلمةُ "أب"، بالكاد ١٥ منها هي مستعملة بالمعنى الدينيّ:

– يُنعَت **الله** بأنّه **"أب" فقط من خلال علاقته بشعبه**؛ لنُدرج بعض الاستشادات حول هذا الموضوع:

+ "أبهذا تكافىء الربّ، أيها الشعب الأحمق، الذي لا حكمة له؟ أليس أنّه هو أبوك مالكك الذي فطرك وأبدعك؟" (تث ٣٢: ٦).

+ "فإنك أنت أبونا... أنت، يا ربّ، أبونا وفادينا..." (أش ٦٣: ١٦).

+ "والآن، يا ربّ، أبونا..." (أش ٦٤: ٧).

+ "يأتون باكين وأهديهم... لأني أب لإسرائيل، وأفرائيم بكر لي" (إر ٣١: ٩).

+ "الابن يكرم أباه، والعبد يكرم سيده، فإن كنت أنا أبًا، فأين كرامتي...؟" (ملا ١: ٦؛ أنظر ٢: ١٠).

– **الله هو أب من خلال علاقته بملك إسرائيل**، بصفته ممثّل الشعب:

+ "أنا أكون له أبًا وهو يكون لي ابنًا" (٢ صم ٧: ١٤؛ أنظر ١ أخ ١٧: ١٣؛ ٢٢: ١٠؛ ٢٨: ٦). + " الله أبو اليتامى وقاضي الأرامل في محل قدسه" (مز ٦٨: ٦؛ أنظر ٨٩: ٧؛ رج ٢: ٧).

إنّ الأبوّة المنسوبة إلى الله والتي تعظّم صلاحه، لم تُرْفَع إلى مستوى الخلق، وبالتالي إلى مستوى الشموليّة، بل فقط إلى مستوى الخلاص، وبالتالي هي محفوظة للمختارين والأبرار وحسب.

٥ – أبوّة الله في سفر الحكمة

يؤكّد سفر الحكمة على أبوّة الله لكل الخلائق، وليس فقط لإسرائيل، حيث يبدو أنّه يتصرف كـــ"أب" تجاه جميع الناس. ففي جدل مع الذين يثقون بالأصنام بأنّها تؤمّن لهم الحماية من عواصف البحر، يشدد سفر الحكمة على أنّ "عناية" الإله الوحيد وحدها، وليس الآلهة، هي قادرة على فتح طريق أمين بالمركب للمُبحِرين في خطر: "عنايتك، أيها الأب، هي التي تُديره (المركب)، لأنك أنت الذي فتحتَ في البحر طريقًا وفي الأمواج مسلكًا آمنًا" (حك ١٤: ٣؛ أنظر أش ٤٣: ١٦؛ خر ١٤: ٢٩؛ ١٥: ٨). الإطار واضح: الإله الوحيد هو الذي، بمشاعر الأب، وكما فعل دائمًا، يهب كلّ الناس، حتّى الذين لا يعرفونه، الوسائلَ الضروريّةَ من أجل القيام بنشاطاتهم. بهذا المعنى، تشكّل هذه الآية (حك ١٤: ٣) الشهادةَ الأقدمَ للعقيدة البيبليّة حول "أبوّة" الله الشاملة، العقيدة التي أضفى عليها تبشيرُ يسوع والرسل لاحقًا بُعْدًا أوسع.

٦ – أبوّة الله في الأدب اليهوديّ

لم يصبح لقب "أب" أكثر شيوعًا، في الزمن اللاحق للمنفى، في اليهوديّة الفلسطيّة. نادرة هي المقاطع في كتابات اليهوديّة الفلسطيّة السابقة (بما فيها الكتب القانونيّة الثانية والمنحولة)، التي يُنادَى اللهُ فيها باللقب الذي نحن بصدده (أنظر طو ١٣: ٤؛ سي ٥١: ١٠). لنقرأ ما يقوله في هذا السياق **كتاب اليوبيلات**:

+ "تتعلّق نفوسهم بي وبجميع وصاياي، ويُتِمُّون وصاياي، فأكون أباهم، ويكونون أولادي. يُدعَون كلّهم أولاد الله الحيّ...، ويعلمون أنّهم أولادي وأني أبوهم الحقيقيّ والشرعيّ" (**يوبيلات**[١] ١: ٢٤-٢٥؛ أنظر أيضًا آ ٢٨).

+ "ليكن الربّ الإله أبًا لك ولشعبك في كلّ زمن، وأنت كن (للربّ) ابنه الحبيب" (**يوبيلات** ١٩: ٢٩).

فقط في بدايات المسيحيّة (القرن الأوّل ب. م.) أصبحَ لقبُ "أب" شائعًا نسبيًّا في الصلوات اليهوديّة الفلسطيّة وفي فكرها، فيُنادَى اللهُ "أبِينُو"، أي "أبانا"، الذي غالبًا يليه نعتٌ آخر، هو "مَلْكِنُو"، أي "مَلِكنا"، أو بعبارة "دْبَشْمَايُو"، أي "الذي في السماء". الفكرة موجودة في أقوال رابّينيّة عديدة؛ هكذا، مثلاً، في قول رابي يوحَنَن بن زاكّاي (حوالى سنة ٧٠ ب. م.): "مبارك إله إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، الذي أعطى أبانا إبراهيم ابنًا حكيمًا وقادرًا على أن يعرض مجدَ أبينا الذي في السماء"[٢]، وفي أقوال رابي أليعازار الكبير (حوالى سنة ٩٠ ب. م.)، الذي يذكر أنّه، أيضًا بعد هدم الهيكل، ينبغي وضع الثقة من جديد في "أبينا الذي في السماء"[٣]. في أواسط منتصف القرن التالي، حوالى سنة ١٥٠ ب. م.، ذكّر رابي فنحاس بن يائير الإسرائيليّين بأنّه لا يكفي أن يرفعوا مرّة واحدة فقط أعينهم "نحو أبيهم الذي في السماوات"[٤]، وأن "أباكم الذي في السماوات" وحده قادر على تطهيرهم[٥]. وقد شكّل هذا النعتُ أيضًا جزءًا من ليتورجيّا المجمع اليهوديّ، كما، مثلاً، في البركة الثانية، التي كانت تسبق تلاوة الـ"شْمَعْ يِسْرَائِل"، وحيث ذات النعت هو مُدرَج في إطار سلسلة من تعابير التسبيح المملوءة بالعاطفة تجاه محبّة الله وصلاحه ورحمته لإسرائيل: "مبارك أنت، أيها الربّ إلهنا، ملك الدهور ...، الذي برحمته..."

---

[١] **كتاب اليوبيلات** أو **التكوين الصغير**، تقديم وتعريب الخوري بولس الفغالي (سلسلة "هامش الكتاب" ٥، الرابطة الكتابيّة، لبنان ٢٠٠٠) ٢٠ و١١٩.

[2] J. BONSIRVEN, *Textes rabbiniques des deux premiers siècles chrétiens* (Roma 1955) 280.

[٣] **المرجع السابق**، ص ٣٨٥.

[٤] **المرجع السابق**، ص ١٤.

[٥] **المرجع السابق**، ص ٢٣١.

٧ – التعرّف إلى أبوّة الله

في إسرائيل، تمّ الإقرار بأبوّة الله شيئًا فشيئًا، ولكن واكبته باستمرار، وبسبب عدم المعرفة، تجربةُ عبادة الأصنام التي ندّد بها الأنبياءُ بقوّة: "يقولون لقطعة خشب: أنت أبي، ولحجر: أنت ولدتني" (إر ٢:٢٧). في الواقع، بالنسبة إلى الاختبار الدينيّ البيبليّ، ترتبط الفكرةُ القائلة إنّ الله أب، أكثر منه بعمله الخالق، بتدخّله التاريخيّ الخلاصيّ، الذي من خلاله يقيم مع إسرائيل علاقة عهد خاصّة. غالبًا ما تذمّر الله من أنّ محبّته الأبويّة لم تكن تلقى صدى مناسبًا: "يقول الربّ: إني ربّيت بنين ورفعتُهم، لكنهم تمرّدوا عليّ" (أش ١: ٢). وما التمرّد على الله وأبوّته سوى دليل قاطع على مدى الجهل الذي يؤدي إلى نكران الله. لذلك لا يتردد سفر الأمثال في التأكيد على "أنّ الذي يحبّه الربّ يؤدّبه، ويرتضي به كأبٍ بابنه" (أم ٣: ١٢؛ رج مز ١٠٣: ١٣). لكن أبوّة الله تبدو أرسخ من المحبّة البشريّة وأقوى منها: "تركني أبي وأمي، ولكن الربّ قبلني" (مز ٢٧: ١٠).

٨ – أبوّة الله وبنوّتنا له بالمسيح

من الواضح أنّه لا يمكن معرفة مضمون أبوّة إلهيّة كهذه في العمق إلاّ على قدر ما يُظهرها الله". ولا تتمّ قراءة صحيحة لموضوع أبوة الله في العهد القديم إلاّ في ضوء يسوع المسيح الذي هو كمال وحي الله وحبّه. "إنّ تاريخ الخلاص كلّه، منذ بدء الخليقة إلى مجيء ابن الله في الجسد، هو تاريخ حبّ الآب وأمانته عبر جواب الإنسان المتعثّر الخاطىء، إلى أن يبلغ هذا الحبُّ ذروتَه على الصليب: "لأنّه هكذا أحبّ الله العالم، حتّى إنّه بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كلّ من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبديّة" (يو ٣: ١٦)". يُظهِر الله الآب محبّتَه للإنسان من خلال براهين حسّيّة، وأفصح برهان هو الخلقُ الذي أعطاه كمالَه في تجسّد ابنِه يسوع المسيح (رج رو ٨: ١٨-٢٣).

"إنّ الذين ينقادون إلى روح الله يكونون حقًّا أبناء الله"، وإنّ كنا أبناء الله، فنحن ورثة الله..." (رو ٨: ١٤-١٧). لقد أدرك يوحنّا الحبيب هذه الحقيقة الرائعة، فأطلق قوله الشهير: "أنظروا بأية محبّة خصنا الآب حتّى نُدعى أبناء الله! ونحن في الواقع كذلك. نحن من الآن أولاد الله، ولم يتبيّن بعد ماذا سنكون. غير أنّا نعلّم أنّه متى ظهر سنكون أمثاله لأنّا سنعاينه كما هو" (١ يو ٣: ١-٢)

خاتمة

نستنتج ممّا تقدّم أنّه ليس حقيقة أعظم من هذه، أي أن **الله أب**، لا بل أبونا، قريب إلينا وممّنا وبشكل عمليّ وفعّال، وهذا ما يتجلّى في الكون والتاريخ. فالله ليس فكرة نظريّة، ولا حقيقة مجرّدة، بل وجود طافحٌ بالحياة والخلاص، لأن الله كليّ المحبّة. هو خالق السماء والأرض وكلّ ما في الكون (تك ١)، وهو الذي "صنع جميع الأمم البشريّة من أصل واحد" (أع ١٧: ٢٦). ولكونه خالقًا فهو أب؛ ولكونه أبًا،

فهو يدعو الناس جميعًا إلى المشاركة في حياته، ضامًّا إيّاهم في جسد واحد، كما يقول بولس الرسول: "لأنّنا نحن، على كثرتنا، جسد واحد" (١ كو ١٠: ١٧).

هكذا يصبح تاريخ البشريّة زمنًا للخلاص ولمحبّة الله المعطاة لكلّ إنسان، لكي يتمكّن كلّ إنسان من أن يحبّ الله والآخَر. وعلى الرغم من الجراح التي يئنّ التاريخ منها، من جرّاء خطيئة البشر، يظل التاريخ زمانًا ومكانًا يفعل فيهما تصميم التحرّر والخلاص، علامة أبوّة الله العظيمة. وبما أنّ طبيعة الله محبّة ورحمة، فلا بدّ أن يكون أبناؤه أيضًا محبّين ورحومين، كما علّم يسوع: "كونوا رحماء كما أن أباكم السماويّ رحيم هو" (لو ٦: ٣٦)؛ "طوبى للرحماء، فإنّهم يُرحمون" (مت ٥:٧). إنّ رحمة إلهنا تتجلّى في أبوّته بشكل لا يوصف: "تلك رحمة من حنان إلهنا، بها افتقدنا الشارق من العلى" (لو ١: ٧٨). لقد أحبّنا حبًّا شديدًا، وأحيانا بعد أن كنّا أمواتًا (رج أف ٢:٤-٥). وتتجلّى رحمة الله الآب في موقف الأب من ابنه الضالّ (لو ١٥: ١١-٢٤)، لأنّ "الله محبّة" (١ يو ٤: ٨)؛ "فمَن أقام في المحبّة أقام الله فيه" (١ يو ٤: ١٧)؛ "وكلّ محبّ مولود لله وعارف بالله" (آ ٧). و"إذا كان الله قد أحبّنا هذا الحبّ، فعلينا نحن أيضًا أن يحبّ بعضنا بعضًا" (آ ١١)، لأنّنا "أبناء أبينا الذي في السماء".

للمطالعة

الله الآب، مجلة البشرى، ١٩ (١٩٩٩).

مجموعة محاضرين، **الله الآب في الليتورجيّا** (منشورات معهد الليتورجيّا في جامعة الروح القدس، الكسليك، رقم ٢٦، ٢٠٠٠).

"أبوّة إله الآباء"، **معجم اللاهوت الكتابيّ** (دار المشرق: بيروت ١٩٨٦) ٢١-٢٢.